

ع

ع
ع

مصطفى محمود



صلى الله
عليه
وسلم

محاولة لفهم السيرة النبوية

مصطفى محمود

الطبعة العاشرة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَحَلَّة





« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ »
(البقرة : ٢١٣) .

هكذا بدأت الحال بالناس أمة واحدة على الجهل والمادية والكفر وعبادة اللذة العاجلة ، لا يؤمنون إلا بما يقع في دائرة حواسهم ، ولا تتجاوز أشواقهم دائرة المعدة والغرائز ، ثم نزلت الكتب والرسول فتفرق الناس بين مصدق ومكذب ، بين مؤمن وكافر ، واختلفوا شيعاً وطوائف .

هكذا يروى لنا التاريخ من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى يعقوب إلى إسحاق إلى إسماعيل إلى موسى وعيسى ومحمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ثم مرت قرون وقرون بالإسلام ضعف فيها شأن الأديان ، واستدار الزمان كهيئته الأولى يوم خلق الله السموات والأرض ، وعادت الجاهلية تلف الناس في ليل مظلم ، هذه المرة جاهلية أشد كثافة وغلظة من الجاهلية الأولى . . هي جاهلية القرن العشرين المتنكرة في ثوب العلم المادى وغروره . . يتبجح بها ناس مشوا على تراب القمر ، وشيدوا ناطحات السحاب ، وغاصوا

إلى قيعان البحر ، وانطلقوا إلى أقاصى الفضاء ، وخضروا الصحارى ،
وزرعوا الأجنة فى القوارير . . وظنوا أن علومهم من عند أنفسهم ، فأخذهم
الكبر والزهو ، وتصوّروا أنه قد حان الوقت ليهزموا الموت ، ويبلغوا الخلود ،
ويفرغوا من الأمر كله .

كاد الناس فى هذا الزمان يعودون إلى الجاهلية الأولى أمة واحدة على
الإنكار والكفر ، يتسم الواحد منهم فى سخرية إذا رأى من يصوم أو يصلى ،
ويقول فى نفسه : هذا العبيط . . لمن يصلى ؟ . ويرى فى الإيمان بالغيبيات
سذاجة وغفلة ، ويرى الذكاء والفظانة والعلم فى رفض هذه الخزعبلات
والأساطير .

فى هذا العصر ظهر لون جديد من كتب السيرة يحاول فيه الكاتب أن
يجرد محمداً عليه الصلاة والسلام من كل ما هو سماوى غيبى ، ويتصوره فى
غار حراء وقد اختلى بنفسه لا ليناجى ربه وإنما ليتأمل أحوال البروليتاريا
فى قريش ، ويفكر كيف يستنقذهم من مظالم السادة بشريعة جديدة ، وقد
جعل من النبى العظيم شيئاً كجيفارا ، ومن الإسلام شيئاً كثورة اجتماعية ،
وظن بهذا أنه كان علمياً فى استقصاء حياة محمد . . وأنه باستبعاده حكاية
جبريل ونزول القرآن إملأ من عند الله ، وإسراء النبى إلى المسجد الأقصى
وعروجه إلى السموات العُلا - ظن بهذا أنه نخدم العقيدة ، ورفع من شأن
رسولها . . وأنه كان يتكلم لغة العصر ، ويخاطب الكافر بلغته . . والحقيقة
أنه لم يكن يخاطب الكافر بلغته ، بل كان يصانعه ويداهنه ويتألفه بالكذب
والتزييف ، ويتزل بنبيه إلى درك السياسيين المغامرين ، ويجرده من العصمة
والقداسة .

وحيته في ذلك ما قال الله لمحمد في القرآن :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » .

وليته أكمل الآية :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ » (الكهف : ١١٠) ، فهذه

التممة تنفي المثلية التي تصورها كاتب السيرة ، فمحمد بشر مثلنا وليس

بشراً مثلنا . . لأنه يوحى إليه ونحن لا يوحى إلينا بشيء . . وإنما نحن أصحاب

اجتهاد على الأكثر . . أقصى ما نحلم به هو انقذاح الفكر وفيض الخاطر .

وهذا الفرق الدقيق هو سر النبوة

إن النبي مثلنا وليس مثلنا .

هو في حضرة الملائكة الأعلى والملكوت يرى جبريل رؤية عين ، ويسمع

منه ، ونحن في الحضرة الأرضية ، وفي الحضيض البشري محجوبون لا حظاً

لنا في هذه المراتب العالية .

هو برزخ بين الشهادة والغيب .

ونحن على شاطئ الشهادة والمحسوس لا نكاد نطل على البر الآخر إلا في

حلم أو شطحة أو كرامة .

وهذا هو الفرق بين النبي والولي والمصلح الاجتماعي .

النبي جالس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع

والتكليف . . وهو معصوم لا ينطق عن الهوى .

والولي كل حظه لحظة شفافية وإطلاقة خاطفة من باب موارد ما يلبث

أن يعود فينغلق ، وليس له عصمة ولا تكليف ولا تبليغ .

والمصلح الاجتماعي من أهل الاجتهاد مثله مثلنا ، وحظه حظنا ،

يخطئ ويصيب ، ولا عصمة له ، ولا خروج من دائرة المحسوس ، ولا تحليق إلا بالخيال والحدس والتخمين .

وأى فرق هائل بين هذه المراتب ؟ . . تكاد كل مرتبة تكون فى فلك .

وأى سقوط بالنبوة إذا نحن جردناها من هذه الصلة الربانية ؟ . . وماذا يبقى من الدين إذا جردناه من الغيب ؟

إنه التكذيب بعينه وقد أخذ صورة العبارة العلمية الملفوفة . ألم يصف الله المؤمنين بأنهم :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » (البقرة : ٢)

فجعل شرط الإيمان هو الاعتقاد بالغيب .

« وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » (النساء : ١٣٦) .

فالإيمان بالملائكة شرط صريح للإيمان بالله .

ولكنها مادية العصر تسلت إلى كل شىء حتى إلى فهمنا للنبوة . . وأصبح الكاتب العصرى يتصور أنه يكون أذكى وأفطن إذا تكلم عن محمد عليه الصلاة والسلام كما يتكلم عن أبراهام لنكولن ، فهذا هو الفهم العلمى للأمر .

وما هو بالفهم العلمى ولا الموضوعى .

فكل نبي مصلح ، وليس أى مصلح بنى مهما بلغت إصلاحاته . لأن جوهر النبوة ليس الإصلاح ولا التعمير . ولكن جوهر النبوة هو هذه

الصلة المهمة بالله وبغيبه المغيب ، هو هذه الحالة البرزخية بين الطبيعة وما وراء الطبيعة .

هذه الحالة التي تجعل من النبي مستمعاً من نوع فريد يتلقى الإلهام من آفاق أعلى لا يرقى إليها غيره .

ولهذا يحتاج النبي إلى إعدادٍ روحي يختلف تماماً والإعداد العقلي الذي يحتاج إليه المصلح الاجتماعي .

فإذا كانت عدة المصلح الاجتماعي هي الدراسة والخبرة والعكوف على المراجع وأمّهات الكتب المتخصصة ، فإن عدة النبي مختلفة تماماً . فهو في غير حاجة إلى الدراسة والعكوف على الكتب ، وإنما إلى إرهاف السمع إلى الكون ، وتجريد قلبه من الشواغل ، وتخليص همته من التشتت في توافه الأمور ، والخروج بنفسه من شدّ وجذب الرغبات والنزوات والشهوات ، وجمع الهمة وتركيزها في طلب شيء واحد هو حقيقة الحقائق . . الله سبحانه .

ولهذا يخرج إبراهيم إلى الفلوات يتأمل القمر والنجوم ، ويخرج المسيح إلى البرية ، ويصوم موسى أربعين يوماً لمليقات ربه ، ويختلي محمد في الغار . لم يعتزل محمد في الغار ليقوم بدراسة البروليتاريا في قريش كما زعم أصحابنا . . وإنما لنكتة تدل على مدى ما بلغت عقول الماديين من سطحية وخواء ، فلم يكن في قريش صناعة ليكون فيها بروليتاريا . . وإنما كان فيها أرقاء . . وكانت تأتي الحروب القبلية فتجعل من السادة رقيقاً ومن الرقيق سادة هكذا فجأة دون أي مضمون طبقي في الموضوع . . الغالب يجعل من المغلوب رقيقاً وسبائياً حتى تدور عليه الدوائر فتقلب الأوضاع .

وقد جاء محمد في المجتمع القرشي رقيق ، وترك محمد الدنيا في قريش رقيق . . وكان لمحمد - عليه الصلاة والسلام - في حياته سبي ورقيق من غزواته . . إذن لم يكن همّ محمد في الغار وما بعد الغار مسألة السادة والعبيد . . وإنما كان همه الوحيد هو معرفة الإله ثم التعريف به واحداً لا شريك له .

ولم تكن معركة الإسلام هي التغيير الطبقي ، وإنما كانت معركته هي الانتقال بالعقول من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة التوحيد ، ومن العبادة الوثنية إلى التجريد . . ولهذا حرص محمد - عليه الصلاة والسلام - بعد الإسلام على أن يثبت كل زعيم على زعامته وكل سيد على مكان الشرف في قومه دون تبديل إلا أن يرفض تحطيم الأصنام ، فكان حينئذ يخلعه من ولايته .

وإنما جاءت الوظائف الاجتماعية للدين بعد ذلك حينما بدأت تقوم دولة جديدة موحدة في حاجة إلى تشريع جديد وقوانين جديدة وعلاقات جديدة ، فنزلت الآيات الخاصة بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة كما شرحنا إسهاب في مكان آخر ؛ وسوف يعود السائل فيسأل :

ولماذا لا يكون محمد عبقرياً ملهماً ؟

ولماذا لا نرى فيه مصلحاً من طراز فريد ؟

ولماذا لا يكون السياسي والقائد والزعيم الذي لا يوجد بمثله الزمان ؟

وكيف نقنع العقل العلمي اليحث بحكاية النبوة هذه ، علماً بأن مسألة جبريل ونزول القرآن من السموات مسألة لم يباشرها إلا محمد عليه الصلاة والسلام وحده ، ولا دليل لدينا عليها ، إلا أن نسلم بها تسليماً بلا مناقشة . . وهو أمر لا يرضاه العلم ؟

وربما أوماً السائلون موافقين .

نحن معك أن هدف محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن التغيير الطبقي ، ولا كان شاغله في الغار هو مسألة السادة والعبيد ، وستوافق معك على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يتأمل في الحقيقة ، وكان يطلب ما وراء الطبيعة . . وكان يريد الله . . ولكن أو لم يكن هذا هو عينه مطلب الفلاسفة أجمعين من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو إلى كانت إلى هيجل ؟ لماذا لا تراه واحداً من هؤلاء ، وبعضهم كان أمياً مثل سقراط .

لماذا تقول إنه نبي ؟ . لماذا هذا الإصرار على أنه نبي ؟

أعندك شواهد غير إيمانك يمكن أن تقنعنا عقلياً بنبوته ؟

وهي أسئلة مشروعة . . وهي تجرنا كلها جراً إلى موضوع ملامح النبوة في حياة محمد . . وهو موضوع عشش في ذهني طويلاً وأنا أطلع كتب السيرة وأطوف بين سطورها متأملاً متدبراً سيرة الإنسان الذي غير الدنيا وعاش ومات كرجل بسيط متواضع .

ولن أحكى عن الخوارق التي تروىها السير عن حياة محمد . . فالإسلام لا يلجأ إلى الخوارق لإقناع الناس . . ومحمد كان يجاب كل من يسأله الإتيان بخوارق قائلاً : إنما أنا منذرولست بصانع معجزات .

وخالد بن الوليد حينما أسلم مؤخراً ، وكان فارس قریش وسفاحها أيام الكفر ، وقف يقول :

« الآن استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » .
كان العقل والمنطق إذن هما وسيلتاها إلى الاقتناع ، وليست المعجزات ولا الخوارق .

وحيثما غضب أبو سفيان لمقالة خالد وقال ثائراً : واللوات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بقتلك يا خالد قبل محمد .

فأجاب خالد فى إصرار : فوالله إنه لحق على رغم من رغم .

فاندفع أبو سفيان نحوه ليقتله ، فحجزه عنه عكرمة بن أبى جهل ، وكان حاضراً ، وقال : مهلا يا أبى سفيان . . أتم تقتلون خالدًا على رأى رآه . . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .

كان الصراع إذن صراع رأى . .

وكانت حجة الإسلام هى العقل والمنطق فى كل الأوقات ، ولم تكن المعجزات ولا الخوارق .

وهذا هو عكرمة بن أبى جهل ، وهو أشد الشباب كفرةً وخصومةً لمحمد ، بعد أن قتل أبوه بيد المسلمين فى بدر ، يقول فى خوف ونخشية : والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبع أهل مكة محمداً كلهم .

وقد خاف الحجة البينة التى رآها تكتسح الناس اكتساحاً . . ولم يخش من محمد معجزة ولا كرامة .

وإذا كانت هناك معجزة فى الموضوع . . فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من عصا .

وإنما كانت المعجزة هى ذات محمد نفسه التى جمعت الكمالات وبلغت فى كل كمال ذروته .

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض .

وإن تبلغ ذاتك الكمال في صفة واحدة ، فتبز فيها وتتفوق على أقرانك ،
فهذه هي العبقرية .

إن تبلغ الذروة في الخطابة فأنت ديموستن . . وإن تبلغ الذروة في الشعر
فأنت بيرون ، وإن تبلغ الذروة في الزعامة فأنت بركليس ، وإن تبلغ الذروة
في الحكمة فأنت لقمان ، وإن تبلغ القمة في فنون الحرب فأنت نابليون ،
وإن تبلغ الذروة في التشريع فأنت سولون .

أما أن تكون كل هؤلاء ، وأن تمتحنك الأيام في كل صفة فتبلغ
فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجاز بعينه . . وإذا حدث فإنه
لا يفسر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده .

وهذا هو برهاني على نبوة محمد .

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء ، وإذا نطق كان
أفصح الفصحاء . . لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة ، وإنما عن
حكمة الحكيم وبصر البصير الملهم . . وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا
بأنها من جوامع الكلم .

فإذا ذهب هذا المحدث الهادئ ليحارب رأينا فيه مقاتلاً فذاً ومخططاً
عسكرياً من الطراز الأول .

فهذا هو ينظم جيشه في معركة أُحُد فيضع خمسين من الرماة على شعب
من الجبل في خلفية الجيش المقاتل وهو يقول لهم :

« احموا لنا ظهورنا . . والزموا مكانكم لا تبرحوه ، وإن رأيتمونا ندخل
معسكر العدو فهزمهم فلا تفارقوا مكانكم . . وإن رأيتمهم يحملون علينا
فيغلبونا ويقتلوننا فلا تدافعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ،

فإن الخيل لا تقدم على النبيل .» .

ونعلم الآن أن انكسار المسلمين في أحد كان بسبب مخالفة هؤلاء الرماة لتعليمات الرسول ونزولهم من الجبل لاهتبال الغنائم حينما رأوا فرار الكفار . . فالتف خالد بن الوليد (وكان قائد الكفار في ذلك الوقت) وهاجم جيش المسلمين من الخلف وقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة .
فماذا يفعل هذا القائد المهزوم .

إننا نرى صورة أخرى من صور الجرأة وبُعد النظر والمخاطرة الدقيقة المحسوبة . . فما تكاد تمر أربع وعشرون ساعة حتى نراه يجمع هذا الجيش من الجرحى والهللكى ليتبع جيش المنتصرين العائد إلى مكة . . فيقع في روع أبي سفيان قائد الكفار أن محمداً جاء من المدينة بمدد جديد . . ويتنادى الجنود أن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم ير مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه . . وكلهم أشد ما يكون طلباً للثأر .

ويبلغ جيش الجرحى حمراء الأسد فيوقدون النيران ثلاث ليال متتابعة موهمين الأعداء أنهم ينظمون أنفسهم لوثبة تقضى على جيشهم . . فتزعزع همة أبي سفيان وتتضعضع ، وينسحب بجيشه مسرعاً إلى مكة خيفة أن يفقد انتصاره الذى كسبه سهلاً في أحد . .

ويعود الجيش المكسور وقد استرد شيئاً من حميته وكرامته التى أهدرتها الهزيمة . . ولا يعرف وزن هذا الكسب النفسى إلا كل عسكرى محترف . .
هذه العملية الجريئة بكل ما تضمنته من مخاطرة مهلكة تكشف عن مخطط من طراز فريد .

ثم إذا جدّ الجدد والتهب الموقف نجد هذا المخطط العبقري الذى مكانه

المؤخرة يتحول فجأة ليقف في المقدمة والنبيل والحراب والسيوف تزجر من حوله والموت يحصد الرقاب وهو ثابت كالجبل ، وهذه وقفة النبي يوم حنين . . يوم أمطر الأعداء جيش المسلمين بوابل من النبل من أعالي الجبل في عماية الفجر ، فأنزلوا الفوضى والاضطراب في صفوفهم ، فكروا فراراً وقد أطلقوا سيقانهم للريح حتى قال أبو سفيان ساخراً : لن تنتهي هزيمتهم دون البحر . وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة في شماته : اليوم أدرك ثأري من محمد .

فماذا فعل محمد ، وهو يرى انكسار اثني عشر ألف محارب مسلم ، وضياح عشرين سنة من الكفاح ، في غمضة عين ؟ . . لقد ثبت وسط طوفان الأرجل التي تهول مذعورة من حوله . . وسمرّ رجله في الأرض ، وجيش العدو ينزل من أعالي الجبل في ألوف يطارد المسلمين ويجندهم صرعى من يمين وشمال . . والنبي يحاول أن يندفع في وجه السيل الجارف ويحث بغلته البيضاء ، وابن الحارث بن عبد المطلب يردّ خطابها خوفاً على النبي ، والعباس بن عبد المطلب يصيح بصوته الجهورى في الهارين : يا معشر الأنصار . . يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . إن محمداً حيّ ، فهلموا .

ومحمد صامد وسط الموت يصيح : إلى أين ؟ . . إلى أين أيها الناس ؟ ..

أنا النبي لا كذب . . اثبتوا . .

وتمر لحظة هائلة بوزن التاريخ كله .

لحظة تتغير فيها المصائر .

وتمسّ القلوب وقفة النبي القائد أمام الموت .

ويعود الهاربون يتصايحون من كل جانب . . . لبيك . . . لبيك يا نبي الله ، ويلوى كل رجل عنان فرسه ليقتحم المعركة وتلتحم الأسنة .
ويذكر الرواة فناء قبيلتين من القبائل المسلمة في هذا الالتحام عن آخرهما وانقلاب الهزيمة إثر ذلك إلى انتصار ساحق . . . وأحصى المسلمون من الغنائم ذلك اليوم اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف أسير نقلوا محروسين إلى الجعرانة .

ولتعلم أى نوع من الأعداء انكسر في ذلك اليوم . . . يكفي أن تسمع هذا الحوار الذى دار بين المسلم الذى جرد سيفه ليقطع رقبة عدوه فلم يغن السيف شيئاً . . . فقال الكافر في ثبات وصلف وسخرية .

نَسْ ما سلّحتك أمك ! . . . خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب به الرجال . . . ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فُربّ يوم والله قد منعت فيه نساءك .

كان هؤلاء الأعداء رجالاً كل واحد بألف . . . ولم يكن الإسلام يحارب أشباحاً بل صناديد .

ولم يخف النبي إعجابه بقائد الأعداء مالك بن عوف ، وكان قد هرب بعد الهزيمة ، وتحصّن في حصون الطائف مع بقية من جيشه ، فأرسل إليه رسولا من أهله يبلغه إن أتاه مسلماً أن يرده عليه السبايا من أهله كما يرد عليه ماله وعليه زيادة مائة من الإبل . . . وما كاد مالك يعلم بهذا الوعد السخى حتى أسرج فرسه خلسة وانسل عائداً إلى النبي ، فأعلن إسلامه ،